يا غازى ... عليك رحمة الله !

للأستاذ على الطنطاوى

عليك رحمة الله (يا غازى) الحبيب، يانفر الشباب، ياس لم يعتم بالشباب ! ياسيد العرب، ياس روع فقده العرب. يابدر العراق الآفل، ياأمل الشام الذاهب يا دنيا من الفتوة والبطولة والنبل طواها كف الموت (يا غازى) عليك رحمة الله !

بالأمس استصرختك وأنت أملنا وملاذنا، وأنت عوننا على الدهر الظالم، والعدو الغاشم، أفأقوم اليوم لأرثيك يا أملنا ويا ملاذنا ؟ أأقف على قبرك الطرى مودعاً وباكياً، وقد كنت أقف على بابك العالى مستغيثاً ومستصرخاً ؟ أأخاطبك اليوم من وراء القبر وقد كنت بالأمس ملء الكون حياة وقوة وشباباً ؟

ليتنى ما عشت حتى أرى هذا اليوم ! ليت يدى ما طاوعتنى حتى أكتب هذا المقال ! ليتنى ما بقيت حتى أرثيك يا غازى ! (يا غازى) جل المصاب وما لنا فيه يدان ! (يا غازى) عظم الخطب وضاقت الحيلة ! (يا غازى) لو كان يفتدى ميت لفداك العرب بأنفسهم ! (يا غازى) قد فقدناك فعليك رحمة الله !

على شبابك الكامل، على بطولتك النادرة، على أيامك الحلوة، على ذكرياتك الخالدة، على روحك الطاهرة (يا غازى) رحمة الله !

* * *

أفى عشرة أيام يدور الفلك، وتتبدل الدنيا، ويستحيل عيد مولد الملك الشاب الحبيب، إلى مأتم الملك الشاب الحبيب ؟

أفى عشرة أيام تمر دنيا كاملة، تبدأ بأعظم عيد عرفه هذا الشعب هو عيد ميلاد (غازى) وتختم بأجل مصاب رآه، وهو المصاب (بغازى) ؟

من كان يظن وهو يشهد أفراح هذا الشعب فى (٢١ آذار) يوم الربيع الطلق، ويوم (غازى) الذى كان أسرع من الربيع وأبهى، أن الفجيعة الكبرى كامنة فى الغد القريب، وأن هذا الشعب سيلطم وجهه ويمزق ثوبه حزناً على (غازى) ؟

أأحست بالغد القريب فذهبت تستعجل القدر لتهيئ لأمتك كل شىء قبل أن تمضى، فعرضت جيشك يوم الثلاثاء لتؤكد لها القوة والأيد، وفتحت السدة يوم الأربعاء لتضمن لها الحضارة والخصب، وعطفت على آلام سورية لتنشئ لها الوحدة والعزة، وأجريت الخيل يوم الجمعة لتعلم وليدك الصغير كيف يكون فارساً قبل أوانه، كأنك شعرت أنا ستفجع فيك قبل الأوان ؟

لقد كنت قريباً منك يوم (عرض الخيل) فرأيت فى عينيك وأنت تراقب ابنك معنى من معانى النيب ولكنى ما أدركته، ومن أين يخطر على بالى أنك كنت تودعه، وتفكر فيه كيف يفقد أباه ويجد الملك، فلا يدرى ما الملك ولا بنى ينادى : بابا ... ؟ من كان يظن أن الملك الشاب ابن الخمس والعشرين يموت ؟

من كان يظن أن هذه الهبّة الكبرى إنما هى استعجال للقدر، وأن هذه الأيام العشرة إنما هى الخاتمة البارعة لتلك الحياة البليغة ؟ .. ولكن هل تم كل شىء حتى تستريح (يا غازى) ؟ لقد وعدت (وفد المروة) أن تشرفهم بلقائك وما عهدناك أخلفت قبل اليوم وعداً. لقد كمل الجسر العظيم الذى لم ينشأ مثله فى عهد الرشيد والمأمون، فأين أنت لتفتحه بيدك، وتخطو فيه أول خطوة ؟ لقد وصل الخط الحديدى إلى الموصل أفلا تفضلت فرعيته وافتتحته ؟ لقد أجمعت أمة الشام على نصبك ملكاً، وتسليمك عرش أبيك على رغم الظالمين، فأين أنت لتسكن قصر أبيك فى دمشق وتحتل عرشه فيها ؟ لقد تهيأ العرب ليمشوا تحت لوائك إلى قمم المجد وذرى العظمة، فتقدم يا قائد العرب يا مليك ؟

وأين قائد العرب ؟ أين المليك ؟

لقد مشى إلى رحمة الله، فإنا لله وإنا إليه راجعون !

* * *

أحين اشتدت المعضلة، واستحكم الأمر، ورجوناك للخطب لا يرجى فيه إلا أنت ..؟

أحين تعلقت بك الآمال ، وأقبلت عليك القلوب ، وغدوت حبيب الشعب الفدى ..؟

أحين تمت بك الأفراح ، وكادت تتحقق بك المنى ...؟

اللهم لقد حرمت كل شيخ منا ابنه ، وكل فتى أخاه ، وكل صبي أباه ، حين أخذت سيدنا وحبيبنا وملكنا غازى !

اللهم فارزقنا الصبر ، وأين منا الصبر ؟

* * *

(يا غازى) ارفع رأسك ساعة وانظر إلى شعبك . إنه يحار ماذا يصنع ، فهو يسكت واجماً ثم يثور نادباً ، ثم يستفزه الألم فيقرع الطبول ويرقص رقصة اليأس . إنه يحمل صورتك مجللة بالسواد فلا يراها أحد حتى يبكى . على أنهم حملوا صورتك في الأفئدة ونقشوها على صفحات النفوس ، فأنت من كل قلب حبته ، ومن كل عين سوادها ؛ اسمك آهة على كل لسان ، ودمعة في كل مقلة ، وخفقة في كل فؤاد ، وسناحة في كل بيت عربي ...

فيا غازى ، عليك رحمة الله !

* * *

لقد لحقني اليوم طفل ما أحسبه بلغ الرابعة ، فجعل يطلب مني بالحاح ويشير بيديه ؛ فأعطيته فلسين فألقاهما في وجهي ، فزدتهما فرمى الأربعة ، فتفهمت قصده فإذا هو يطلب شارة سوداء كالتي أضعها في صدري ليعلن بها الحزن عليك ، فدفعتها إليه فانصرف وهو يذكر اسمك ويبكى !

لقد رأيت عجوزاً تنظر إلى رسمك المجلل بالسواد وتبكى بحرقة كأنما تبكى فيك ولدها الوحيد ، وهي تظن أنه ما يراها من أحد إلا الله !

لقد أغمى على كثير من الطلاب والطالبات لما سقط عليهم الخبر الأسود . لقد احمرت من اللطم صدور وخدود يؤذيها مس النسيم !

يا غازى ، يا أيها الفتى القوى ، يا أيها الفارس الطيار ، ألم تعد تستطيع أن ترفع رأسك مرة أخرى لترى ما صنع شعبك ؟

لقد مت من القضاء مرة ولكنا متنا من الحزن ألف مرة ، وسنموت من الحزن ألف مرة ، ولن ننساك (يا غازى) ، مثلك ما ينسى !

* * *

إن الشام الذى نادى بك مليكاً منذ أيام وكنت أنت أمله لم يبق له أمل ، فهو يبكى فيك اليوم كل شهيد من شهدائه . إنه كان يحبس دمعه من أجلك فلمن يحبس الدمع من بعدك ؟

إن العجوز التى كانت تتلقى ابنها القتيل وهى تهتف باسمك ، لم يبق لها من تهتف باسمه من بعدك :

(يا غازى) من لأطفال الشام ، من لنسائه ، من لضعافه الذين يسومهم القوى ألوان الخسف ؟ (يا غازى) من لهم ، وباسم من يهتفون من بعدك ؟

(يا غازى) ما تيتم لفقدك فيصل الصغير وحده ولكن فقدك يتيم كل عربى . ما تيتم فيصل الصغير ، أبداً ما تيتم ، إن كل عربى له أب وخادم وصديق ، إن له في قلب كل عربى مكاناً !

* * *

أحقيقة أنهم أودعوك جوف الثرى ؟

(يا غازى) إنى والله ما أصدق أنك مت !

(يا غازى) لقد سمعت الخبر فكذبته ، ولعنت ناقله وانتظرت أن أراك طالعاً علينا ، تمر مرّ النسيم الناعش ، مرّ الرجاء الحلو بخيال الآيس الحزين ، تحيي شعبك ، وتسبغ عليه القوة والحياة بابتسامتك المنيرة وفتوتك الباسلة ؛ وطفقت أراقب الساعة أحسب الوقت فلم تمرّ ، فشككت ولكنى لم أصدق ما قال المرجفون ، ورأيت النساء يبكين ويندبن ، فبكيت والله ، ولكنى لم أصدق ما قال المرجفون ... وشاهدت بغداد وملء شوارعها البكاء والحسرة والندب ، ولبثت أشك ولبثت أرجو ، حتى سمعت المذاع ووعيت الصيحة ، فلم يبق شك ولم يبق رجاء ....لقد تحقق النبأ فوا حسرتاه ... لن نراك (يا غازى) طالعاً علينا ، لن نبصر من بعد موكبك ولا ابتسامتك ولا تحيتك ، فيا غازى في ذمة الله وأمانه ، يا غازى عليك رحمة الله

* * *

يا أهل بغداد !

مات غازى فابكوا واندبوا ، فعلى مثل غازى يحلو الندب والبكاء.

يا أهل بغداد !

ما فجعتم فيه وحدكم ، ولكنها فجيعة العرب بسيد العرب .

لقد كان منار رجائنا (معشر الشاميين) فانطفأ المنار . لقد كان لنا مناط الأمل . لقد كان لنا كل شيء ... فيا أهل بغداد كلنا في المصيبة سواء